DOI:10.18018/URUK/021-14/792-805 ISSN : 2072-6317(P) - 2572-5440(O)

BM-Publisher

جامعة المثنى / كلية التربية للعلوم الانسانية

مجلة اوروك للعلوم الانسانية

موقع المجلة : www.muthuruk.com

تجليات الهوية الحضارية في شعر علي جعفر العلاق

رائد فؤاد طالب

كلية الآداب / جامعة البصرة

معلومات المقالة

تاريخ المقالة:

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٠/١١/١

تاريخ التعديل : ٢٠٢٠/١١/٢٢

قبـول النشـر: ٢٠٢٠/١٢/٢٠

متوفر على النت: ٢٠٢١/٣/٢٨

الكلمات المفتاحية :

الهوية

الحضارية

شعر

علي جعفر العلاق

الملخص

تعدُّ الهوية الحضارية وما أرتبط بها من حديث عن الأنا والآخر من الإشكاليات الحديثة التي واجهت الإنسان المعاصر وهو يبحث عن انتمائه الوجودي وما يحقق تميزه الذاتي وخصوصياته الثقافية ، وقد سعى الشاعر العربي المعاصر إلى أن يعطي لهذه المواجهة صورة يجسد من خلالها فكرة البحث عن الذات وسط ما تعانيه من إستلاب يهدد هويتها ويفقدها أصالة الانتماء الوجودي ، وقد مثلت نصوص الشاعر العراقي علي جعفر العلاق إنموذجا للشعر الذي عبر عن هوية الذات الحضارية ، ومن هنا ارتأينا أن نتناول موضوعة الهوية الحضارية وما ارتبطت بها من موضوعات في شعر العلاق محاولين تتبع هذه التجليات في ديوانه الشعري .

©جميع الحقوق محفوظة لدى جامعة المثنى ٢٠٢١

المقدمـة

شغلت قضية الهوية الحضارية وما انطوت عليه من حديث عن الأنا والآخر مساحة كبيرة في الفكر الإنساني ، إذ عُدّتْ من الإشكاليات الحديثة التي واجهت الإنسان المعاصر وهو يبحث في خضم الصراعات الفكرية عن انتمائه الوجودي وما يحقق تميزه الذاتي وخصوصياته الثقافية .

وإذا كان الادب والشعر بصورة خاصة يقوم على تفعيل روح المواجهة ومقاومة التحديات التي تحدق بالذات من خلال صراعها المستمر في منعطفات الزمن ، فإنَّ الشاعر العربي سعى إلى أن يعطي لهذه المواجهة صورة يجسد من خلالها فكرة البحث عن الذات وسط ما تعانيه من استلاب يهدد هويتها ويفقدها أصالة الانتماء الحضاري .

إنَّ الشعر منذ أن ادرك الإنسان او أدركه قد عمل وبفعالية سحرية وجبارة ، على تفعيل مواجهة الإنسان للحياة واستئناف حواره الندي معها ، ودفع المعادلة المؤلِفة لإشكاليتهما باتجاه التعادل التقريبي دائما ، إنّها موازنة كبرى من الموازنات التي اقترحتها الطبيعة لإرضاء الأطراف جميعا ، وتسوية أكثر المشكلات تعقيدا وتداخلا ، نحو تعميق أداء الفعل الخلاق للشعر ، الذي يمنحه ذلك قدرا من الاطمئنان والسلام ، ويقلل لديه حدة التوتر والقلق والإحساس بالعزلة ، فمن وظائف الشعر الخطيرة منع الذات الإنسانية من التآكل والتلاشي والانسحاب إلى ما دون الخط الفاصل بين المتن والهامش ، أملاً في دفعها نحو استغلال المنجز الحضاري واستثماره ممولا من مصادر التمويل الابداعي المهمة التي ترفد التجربة الشعرية بكل ما هو أجدّ واحدث[١] ، ومن هنا كان الشعر تعبيرا حقيقيا عن مكنونات الذات إزاء ما تواجهه من أحداث وما تمر بها من محن ومسارات متأزمة .

*الناشر الرئيسي : E-mail : readfuoad22@gmail.com

ذلك ان ((الشعر بناء يستمد ركائزه من أبنية الثقافة التي ينتمي إليها الشاعر ، لكنه لا يخضع لها بل يشكل بناء موازيا ومعادلا لهذه الأبنية يعكس آليات انتاج المعرفة لا لتثبيتها وإنّما لكشف تناقضاتها))[٢] ، فالشاعر المعاصر مرتهن في وجوده بمرجعياته الثقافية وانتمائه الحضاري ، ولذلك سعى إلى تمثل تلك المرجعيات وذلك الانتماء عبر محاولاته في التعبير عن لحظته الراهنة وما تحمله من شعور بالانتكاس والهزيمة ، إزاء ما تختزنه ذاكرته من أمجاد معرفية وعمق حضاري وصروح فكرية ، شكلت مجتمعة صورة للذات المعاصرة وهي تعيش مخاض الأحداث التي جسدتها لحظات الضياع التي تمر بها وما رافقها من حالات التيه الفكري الذي صبغ الواقع وما أحدثه من تصدعات وانشطارات في اعماق الذات المعاصرة .

وقد مثلت نصوص الشاعر العراقي علي جعفر العلاق إنموذجا للشعر الذي عبر عن هوية الذات الحضارية وهي تعيش لحظتها الراهنة بكل تفاصيلها وتداخلاتها ، فسعى إلى تصوير المشهد المعاصر وما ينطوي عليه من ارتكاسات فكرية حادة ، محاولا تعرية واقعه بكل ما يستطيع من إمكانات إبداعية ، والوقوف على مكامن الخلل في الذات العربية ، بقدر ما يسعى ايضا إلى إبراز زيف الآخر المرتبط بالحالة التي وصلت إليها هذه الذات وفضحه وتعرية مقاصده ودوافعه المبنية على تقويض الأنا واستلابها وتدمير صروحها الثقافية وأصالتها الحضارية ، وما يحقق ذلك للآخر من طمس لهوية الذات وإفنائها ومن ثم تلاشيها .

إنّ الإحساس بالهوية* الحضارية والوعي بها يستيقظ ويشتد ، في ظروف التحولات والانتقالات الكبرى التي تجتازها الشعوب ، وتتخللها الأزمات والتصدعات الاجتماعية والنكسات ، ذلك لإنّ التشبث بالهوية في هذه الحالة يكون بمنزلة الملجأ الآمن [٣] ، إذ إنّ هوية الإنسان أو الثقافة أو الحضارة هي الثوابت التي تتجدد ولا تتغير ، تتجلى وتفصح عن ذاتها ، دون أن تخلي مكانها لنقيضها ، طالما بقيت الذات على قيد الحياة ، إنّها كالبصمة بالنسبة للإنسان ، يتميز بها عن غيره ، وتتجدد فاعليتها ، ويتجلى وجهها كلما أُزيلت من فوقها طوارئ الطمس والحجب ، دون أن تخلي مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات [٤] ، لهذا كله عُدَّ سؤال الهوية إشكالية حضارية حرجة ، لاسيما حين تواجه الذات واقعا يشهد صراعا على الهوية ومكتسباتها ، ومحاولات للحفاظ عليها من المخاطر المحدقة بها .

ومن هنا ارتأينا ان نتناول موضوعة الهوية الحضارية وما أرتبطت بها من تعالقات في شعر العلاق محاولين تتبع هذه التجليات في ديوانه الشعري ، عبر استنطاق نصوصه في سياقاتها المتعددة ووفقا لدلالات تلك النصوص الثاوية في بنيتها العميقة والمتجلية في مضامينها الظاهرة والمضمرة ، بدءا بعتبات القصائد ووصولا إلى إبراز هوية الذات الحضارية وتجلياتها في هذه النصوص الشعرية .

الهوية الحضارية في بنية العنونة :

تتكئ بنية العنونة على دلالات عميقة تساعدنا في تجلية متن القصيدة واستنطاقها بما يعزز فهمنا للنص الشعري في صورة موحية ورؤية مركزة لمجريات السياق الشعري ، لاسيما أنّ العنونة تُعدُّ العتبة الاولى للقصيدة ومن خلالها ينفتح مجال تأويلي ثرٌّ نغوص عبره في أعماق القصيدة لالتقاط دلالاتها واكتشاف مكنوناتها الثاوية في هذه البنية .

ولهذا عُدَّ العنوان بفاعليته الدلالية عملا ليس معزولا عن نصه ، إنّما هو دلالة منتزعة من صميمه [٥] فلم يُعدُّ((العنوان الذي يتقدم النص ويفتتح مسيرة نموه ، مجرد إسم يدل على العمل الادبي : يحدد هويته ، ويكرس انتماءه لأدب ما ، لقد صار أبعدَّ من ذلك بكثير ، وأضحت علاقته بالنص بالغة التعقيد ، إنّه مدخل إلى عمارة النص ، وإضاءة بارعة وغامضة لإبهائه وممراته المتشابكة))[٦] ، ومن هنا فإنَّ هذه البنية أصبحت لها فاعلية تأثيرية في الكتابة الشعرية ، وهي بلا شك منطلق أولي لقراءة القصيدة في أبعادها الإيحائية .

ولأهمية العنوان ودوره في توجيه النص صار لزاما على الشاعر المعاصر أن يدرك هذه الاهمية ، وأن يعي هذا الدور الاستثنائي في لعبة العنونة وتجلياتها الضاغطة على جسد المتن ويدرك خطورة وضعها على رأس النص ، فيتفكر ويتأمل ويجتهد ويجرّب وينصت

DOI:10.18018/URUK/021-14/792-805

مليا للإيقاع الخفي المنبعث من أعماق تجربة النص والغمر لفضاء التجربة كلها ، حتى يصل إلى مرحلة اكتشاف عنوانه بحيث يرتكن إليه نهائيا ويطمئن إلى قوته وكفاءته وسلامته اللسانية والتعبيرية والدلالية ، ليستحيل العنوان على هذا الأساس اختزالا نصيا مقننا ومبرمجا على وفق آلية معينة يلتئم على أعلى الهرم النصي وينهض بوظائف شكلية وجمالية ودلالية [٧] ، ليغدو العنوان وفقا لذلك ((منطقة تأويلية ومفتاحا للنص (المتن) أو متفاعلا نصياً يسهم مساهمة فعالة في كشف أسرار النص ، والتمكن من فرز صوره ومعانيه ، مفارقا بذلك العنوانات القديمة التي كانت تشير إلى موضوع القصيدة))[٨] ، لاسيما اننا ازاء شاعر (ناقد) يعرف استراتيجيات القصيدة وآلياتها الفنية وتقنيات العتبات النصية واثرها في بنية النص الشعري ، إذ يصرح الشاعر العلاق نفسه بأنّ عنوان القصيدة ينهض بوظيفة مهمة ، تستبق مسار النص وتوحي بدلالته التي يتمركز حولها ، ويحشد كيانه كله ، صورا وتركيبيا وايقاعيا ، ليكشف عن تلك الدلالة وهي تتبرعم على جسد النص لا بوصفها معنى أو مفاهيم منفصلة عن الملفوظ ، بل بوصفها مظهرا من مظاهر النص ، وحضوره الفيزيائي . [٩]

جاءت تجليات الهوية الحضارية لعتبة العنونة في قصائد الشاعر علي جعفر العلاق وفق صورتين : عنوانات رئيسة ، وعنوانات فرعية ، أما الرئيسة فتتمثل في عنوان مجموعته(ممالك ضائعة) ، وهذا العنوان الرئيس شكل مركزا دارت حوله مجموعة من القصائد التي عكست تجليات الذات الحضارية ، وأخذت قصيدة من قصائدها أسم المجموعة (نواح بابلي .. عودة كلكامش .. أغنية الممالك الضائعة .. أنين الحضارات ..)[١٠] وهذه هي ما تشكل العنوانات الفرعية التي تأتي لتشكل عتبات مباشرة دالة على الهوية الحضارية ، فضلا عن ذلك نجد عنوانات لقصائد كثيرة كمثل : (عناقيد بابلية .. أسوار بابل .. مركبات التتار .. العودة إلى بابل .. ارض السواد .. ليل عراقي .. مرثية جديدة إلى قرطبة .. وطن لطيور الماء) ، وغيرها من العنوانات التي جسدت بايحاءاتها المباشرة وغير المباشرة عمقا دلاليا للهوية الحضارية ، إذ إنّ هذه العنوانات شكلت حالة الضياع التي تنتاب الذات وهي تجوب أعماق التاريخ بأزمنته وأمكنته محاولة تقديم رؤية فكرية للمتلقي تعبر عن القلق الوجودي الذي تعاني منه الذات الإنسانية وهي تتجرع مرارة التمزق الحضاري .

في عنوان قصيدته (أنين الحضارات) يسعى الشاعر إلى أن يعاين ذاته المنكسرة إزاء وطنه العراق الذي يجعل منه مرتكزا لفضاء الحضارات ، إذ يضمّن نصه الشعري هذا العنوان :

من أنين الحضارات اقبلتُ

منكسرا ، وحشة العشب تجرحني

والفرات رماد يئن

على شفتيَّ ، [١١]

وعبارة (أنين الحضارات) تتكرر مرتين في نص القصيدة ، مما يجعلها بؤرة يتمحور حولها موضوع الهوية الحضارية : (**ذا أنين الحضارات / بل قصب / يتكسر في الروح شرسا**) ، والشاعر في توظيفه لهذه اللفظة في عنوان قصيدته يقدم لنا صورة عن واقع حضارات وليست حضارة واحدة تنوء بهذا الالم والتوجع متمثلة في عمق العراق مركز الحضارات البشرية منذ التكوين ، ولفظة (أنين) في اللغة العربية تأتي للدلالة على صوت صادر عن الم أو مرض أو وجع ، أو هو صوت التوجع أو التأوه الماً ، أنّ المريض من الوجع يئنّ أنينا تأوه الماً بصوت عميق وشكوى متواصلة[١٢] ، ولفظة (أنين) توحي بان (الانا) منكسرة إزاء هذا التوجع الذي تئن منه هذه الحضارات (**من أنين الحضارات اقبلت منكسرا** ...) ، وهذا ما يعطي انطباعا عن الانا .. الإنسان .. الذات الشاعرة الحضارية التي اضحت منكسرة بسبب هذا التأوه ، ليلتحم انكسار الذات مع انكسار الهوية الحضارية في تماه واشتباك بفعل الأنين ، وإذا كانت العنوانات تلعب((دورا سيمولوجيا كبيرا في امبراطورية العلامات ، لما تؤديها من وظائف كثيرة في التواصل الثقافي والحضاري وعصرنة الاحتكاك والمثاقفة))[١٣] ، فان عنوان (أنين الحضارات) قد أدى هذه الوظيفة التواصلية بما قدمته القصيدة من بعد حضاري تجلى في تمظهراتها المتتالية للذات الحضارية وهي تروي قصة انكسارها وتوجعها .

DOI:10.18018/URUK/021-14/792-805

وقريب من العنوان السابق قصيدته (**نواح بابلي**) ، في مجموعته (**ممالك ضائعة**) ، وهذه القصيدة - مع قصائد أخرى ضمن هذه المجموعة - تشكل نسقا من تجليات الهوية الحضارية الضائعة ، ففي قصيدته (نواح بابلي) نكون إزاء ذات تبكي امتدادها الحضاري وفقدان هويتها ، وتنكير مفردة (نواح) وجعلها موصوفا لمفردة (بابلي) يعطي دلالة على حالة الأنا الحضارية المرتبطة بالمكان/بابل وهي تتأوه جزعا مما آلت أليه أمور هذه الارض ، لاسيما أنّ لفظة (نواح) تأتي دالة في البكاء على الميت مع جزع وأنين وتأوه ، ويأتي أيضا للدلالة على صوت الكلام مع البكاء .. ناح الشّخصُ على الميّت: بكى عليه بحُزنٍ وصياح وعويلٍ[١٤] ، وهو ما يتجلى في مجريات القصيدة :

منكسرٌ / لا رمادُ يَدَيَّ / يضيءُ، ولا حجرُ القلبِ / يَنْدى.. / ..... / منكسرٌ / لا هشيمُ المرايا / يُلَمْلِمني، / لا حجارةُ قلبيَ / ينضحُ منها دمٌ[١٥]

فهذا النواح ما هو الا نواح الأنا وهي في انكسارها وتشظيها إزاء ما تمر بها مدينة بابل/ العراق/هوية الذات ، من تهشم وجفاف وتحجر وخراب ، وقد زاد هذه الصورة حدة تكرار لفظة (منكسرٌ) التي جاءت نكرة متسقة مع (نواح) النكرة ومع عنوان المجموعة (ممالكٌ) ، لاسيما أنّ من أغراض التنكير في اللغة العربية التعظيم والتهويل[١٦] ، مما يجعل النص يدل دلالة عميقة على الانكسار والألم الذي يعتصر الذات المتوجعة ، لاسيما أنّ سياق القصيدة صوّر الذات في صورة باكية على أمجادها السالفة التي استحالت إلى بقايا لذكريات الماضي الاليم .

وإذا كان (النواح) يأتي في بعض معانيه دالا على صوت الريح المختلطة شديدة الهبوب[١٧] ، فإنّ عنوان القصيدة يكون منشطرا على معنيين : النواح بمعنى البكاء والتوجع وهو ما سبق ، والنواح الدال على هبوب الرياح ، وبهذا المعنى الثاني نجد الشاعر يتكلم بصوت المجموع :

(نتشبَّثُ بالريحِ، أعني نعلّقُ / بالريحِ أطفالَنا ، / وقصائدَنا ، / أيُّ شيءٍ هيَ الريحُ / غيرُ دمٍ يابسٍ، وقرىً / من ترابِ الطفولةِ؟ / أيُّ كمينٍ / هوَ النومُ؟ / أسئلةٌ، وشظايا / نُعلِّقُ للرّيحِ ذاكرةً، / هل تعي الريحُ / حيرةَ أشجارنا، / وعويلَ المياهِ الكسيرةِ؟ / نتبعُها صوبَ بابلَ ...) [١٨]

إنّ نواح الشاعر يستحيل في هذا المقطع إلى صوت الريح ، والريح في معناها لا تحمل غير الشر والخراب (أي شيء هي الريح/غير دم يابس ، وقرى/من تراب) ، إذ فوق ما تمرّ به الذات من انكسار تأتي الريح لتدمر ما بقي من هذه الذات الكسيرة (هل تعي الريح/حيرة أشجارنا/وعويل المياه الكسيرة .....) ، وتدمر معها ذاكرة الذات التي تختزن هويتها الحضارية عبر عصور البشرية (نعلق للريح ذاكرة ..) ، ليتبع الشاعر بعد ذلك ثيمة (النواح) بمعنييه البكاء والريح نحو (بابل) الكسيرة (نتبعها صوب بابل) ، وهو ما شكل الجزء الثاني من عنوان قصيدته ، خاتما هذه القصيدة بهذه الثيمة التي مثلت بؤرة ارتكز من خلالها عمق الهوية المتجلية في بابل عبر سؤال استنكاري يعكس حالة النواح البابلي : **(أينَ تقبعُ أيّأمنا المقبلةْ؟ / في ترابِ طفولَتِنا ، / أم شقوقِ مراياكِ / يا بابلُ المُمْحلةْ..؟)**[١٩].

وثيمة (بابل) كثيرا ما ترد في عنوانات قصائد الشاعر ، سواء بمعناها الحضاري الممتد تاريخيا ، والمقترن بوطن الشاعر (العراق) بعمقه الحضاري وارثه التاريخي أم بوصفها معادلا موضوعيا لواقع الشاعر ، وفي المعنيين تتجلى (أنا الشاعر) المتشربة لدلالات الحضارة والعاكسة لقيمها الإنسانية ، إذ نكون إزاء قصائد متعددة كمثل (عناقيد بابلية ، أسوار بابل ، العودة إلى بابل) ، وهي جميعها تتماهى مع الذات الشاعرة مشكلة هوية حضارية يتجلى من خلالها الانتماء والامتداد لهذا العمق ، لاسيما أنّ انصهار الذات مع هذه التجليات الحضارية يعكس صورة لحالة تتوحد فيها ((عناصر المكان وأبعاد الزمان مشكلة وحدة الداخل والخارج))[٢٠] ، لنكون إزاء ذات حاملة لكل عذاباتها الداخلية ، ومكان يحمل جراحات الخارج عبر امتداداته المتشظية في أزمنته التاريخية .

وفي مجموعة الشاعر (**ممالك ضائعة**) تستوقفنا قصيدة (**اغنية الممالك الضائعة**) المعبرة عن حالة الضياع التي تعاني منها هوية الذات الحضارية المتشظية ، إذ إنّ مفردة (الممالك) تحيل إلى

DOI:10.18018/URUK/021-14/792-805

حالة التفكك والتشظي التي تعيشها الذات الحضارية إزاء دويلات وممالك متباعدة ومنفصلة وليس إزاء حضارة واحدة متماسكة ، وإذا كانت هذه الصورة تعكس حالة التفكك الذي تعيشه البلاد العربية ، فإنّ هذا الأمر يجرَّ الذاكرة الجمعية إلى لحظات التفكك التاريخية التي عانت منها الذات الحضارية في امتدادها التاريخي لاسيما في لحظات الانكسار الحضاري أيام الاندلس ، وإذا كانت (الاندلس) قد شكلت ايامها الاولى مرحلة إبداع حضاري ، فإنّ مفردة (الممالك) تحيل إلى تلك الحقبة التاريخية التي شهدت الانفكاك والتنافر (ممالك الاندلس) ، وفي هذه الثيمة يسعى الشاعر إلى أن يسحب ما آلت أليه أمور الاندلس من تفكك وضياع على حالة الوطن الذي يتنبأ له بالمصير نفسه :

أينَ أقمارُها

يا دمَ الخيلِ؟ أينَ مفاتيحُها

يا بكاءَ الغجرْ؟ [٢١]

يبدأ الشاعر قصيدته بهذا السؤال الاستنكاري (أين اقمارها؟) الذي يعزز حالة السؤال عن تلك (الممالك الضائعة) ، وتوظيف الشاعر لرمزية القمر في بداية القصيدة له ايحاءات تنعكس على تشكيل عنوان القصيدة ، فـ((القمر علامة ، له شكل متغير ، وله منازل في الاعالي ، ارتبط به الزمن ارتباطا سببيا ، أحدهما شرط للآخر ... القمر علامة من علامات الزمن ، علامة على الحياة والموت ، على الوعد والاهمال ، على الطمأنينة والاضطراب ، الإقامة والرحيل .. علامة على العلو والسمو والانس .. الحياة على نحو رضي))[٢٢] ، فأقمار الشاعر هي (ممالكه) التي دارت عليها دورة الزمن فغدت (ضائعة) في غياهب الحياة ، إذ يكرر الشاعر (أين) في قصيدته سائلا عن تلك الممالك الضائعة (أين غرناطة ؟ .. أين فلسطين ؟ .. أين مفاتيح بغداد ؟ ..) ، مما يجعل القصيدة دائرة في فلك العنوان ومتولدة منه ، فالعنوان في مثل هذه الحالة ((هو الذي يفرض وجوده ومنه يتولد النص ، فيغدو العنوان وكأنه بنية رحمية تقوم بتوليد النص ، فتبدأ خيوط النص بالتجمع والانضمام بعضها إلى بعض مشكلة نسيجا مخلصا للعنوان ..... فيتشكل النص بل يتولد من العنوان))[٢٣] ، لاسيما حين نمضي في قراءة القصيدة فإننا نستحضر كل ما يتعلق بتلك الممالك من متعلقات المكان الضائع والمتمثل بالأندلس ، إذ نكون إزاء مفردات تتكرر دائما في نص القصيدة كمثل (مدريد .. غرناطة .. ممالك ضائعة .. قرطبة .. رصافة الاندلس ..) ، محاولا ربط هذه الدالات الاندلسية الحضارية بـ(الممالك العربية الضائعة) قديما وحديثا (فلسطين .. الفرات .. مفاتيح بغداد) ، لتشكل هذه الممالك مجتمعة هوية الذات الشاعرة المفككة ، التي جاءت عاكسة لدلالة العنوان المتكئ على حالة التشظي .

وعنوان (الممالك الضائعة) يحيلنا إلى قصيدة (**مرثية جديدة إلى قرطبة**) ، وهذه القصيدة كتبها الشاعر في قرطبة ، إذ حاول ان يستعيد ذاكرة التاريخ يوم أن كانت قرطبة في زهوها :

ايقظني عطرها : / ذي بلاد / من الماء ، تأوي اليّ / تحدثني : / عن جنائنها ، / واحدثها : / عن قراي [٢٤]

فالشاعر وهو في قرطبة - إذ يذكر مآثر هذه الارض وما حوته من امجاد الحضارة - يسعى إلى أن يتماهى بها (**تحدثني .. أحدثها**) في صورة تتجلى فيها الهوية الحضارية في أعمق حالاتها قوة وتماسكا ، الا انه لا يرى فيها – بعدما آلت اليه من انكسار – سوى (**مئذنة شاحبة .. منائرها المترية ..**) ، وعلى الرغم من كل هذا الضياع الا ان قرطبة (**تجاهد الا تضيع**) ، ليتساءل الشاعر بعد ذلك (**هذا الأنين القديم/ايفضي الطريق/إلى وطن ضائع/أم إلى امة ضائعة**)[٢٥] ، في إشارة إلى بدايات الضياع الاولى التي ابتدأت من هذا المكان الحضاري ، وهذه المرثية بما حمله عنوان القصيدة من عمق دلالي إنما يوحي إلى مرثية لوطن ضائع .. أمة ضائعة ، وليس الرثاء إلاّ في هذا الافق الحضاري الممتد من الشرق إلى الغرب ، لنكون في هذه القصيدة إزاء مرثية ذات بعد جنائزي تحاكي واقعا معاصرا تمر به الذات لاسيما أنّ الشاعر اضاف لفظة (جديدة) إلى عنوان القصيدة لتكون (مرثية جديدة) وهذا ما يؤكد البعد الحزائني الذي يقصده الشاعر في اللحظة الراهنة .

DOI:10.18018/URUK/021-14/792-805

الانا والتجليات الحضارية .. التوحد والتماهي :

سعى الشاعر علي جعفر العلاق إلى ان يجعل من ذاته تعبيرا عن الانا الحضارية في تمظهرات متعددة ، لعل أبرزها التوحد مع هذه التمظهرات والتماهي معها في حالة من الاندماج أحيانا ، وأحيانا أخرى تنحدر نحو التلاشي ، فالأنا هي الحضارة والحضارة هي الأنا في أوسع معاني هذه المعادلة ، ولهذا رأينا الذات الشاعرة في نصوص العلاق تدخل في علاقة جدلية مع هذه التجليات عبر صور عدة .

ففي قصيدته (أنين الحضارات) تتحرك الذات الشعرية لتلامس هذا الأنين الذي ينزّ عن انكسار شديد لـ(الأنا) التي تعاني جراح الواقع / العراق بلد الحضارات :

من أنينِ الحضاراتِ أقْبَلتُ / مُنْكسراً، وحشةُ العُشْبِ تجرحُني / والفراتُ رمادٌ يئُن / على شفتيَّ، غزالٌ يضيءُ / حَنينَ النّساءْ / وطْن يتنزَّهُ مكتئباً / في القصائدِ، حيثُ النسيمُ / بلادٌ معذبةُ، والكواكبُ نائحةٌ في العراءْ.. [٢٦]

إنّ النص يصور واقعا مؤلما للذات القادمة من أرض كانت مهدا لحضارات متعددة ، ليغدو هذا الوطن - الذي تشكل ارضه مركزا لهذا الاشعاع الفكري – منكسرا فلا شيء فيه غير الرماد والجراح والأنين ، وحيث (**وطن يتنزه مكتئبا في القصائد/ ... وبلاد معذبة**) ، فالشاعر في هذا النص يرسم لنا صورة لانتماء الذات لهذه الارض ، لاسيما أنّ الشاعر يبدأ قصيدته بحرف الجر (من) الذي يفيد في بعض معانيه ابتداء الغاية في الأمكنة والأزمنة [٢٧] ، مما يعطي أفقا اوسع لعنوان قصيدته (أنين الحضارات) ، ، معتمدا الفعل الماضي بداية (أقبلت) ليؤكد انتماءه الازلي لهذه الارض ، ثم بعد ذلك يعتمد أفعالا مضارعة لتصوير لحظات الانكسار والألم لوطنه العراق في واقعه الراهن (**يئنّ .. يضيء .. يتنزه ..**) ، الذي يؤكد لحظة الذات في محنتها الحاضرة ، والشاعر في هذا النص يعتمد فاعلية الصورة المكثفة التي تعطي مشهدا دراميا للواقع ، فنحن إزاء (فرات يئن ..) و (وطن يتنزه مكتئبا) و (كواكب نائحة في العراء) ، إذ يحاول الشاعر أن يستثمر الطاقة الشعرية في بناء صور مركبة متلاحقة يكاد كل سطر يستقل بصورة جزئية ، إذ سعى الشاعر العلاق إلى تكوين صورة مأساوية لهذا الوطن - الذي يعد امتدادا لعمق الحضارات – عبر ثلاثة مستويات : (الارض) وما يشكله الفرات من امتداد من شمال العراق وحتى جنوبه ، و(السماء) متجلية في (الكواكب) النائحة في العراء ، و(الوطن) - الذي يتوسط هذا المشهد – وهو (يتنزه مكتئبا) ، والشاعر يشكل صورته الاخيرة عبر مفارقة ساخرة يجمع فيها بين ضدين : التنزه والاكتئاب ، ليثير في المتلقي عنصر الادهاش من خلال هذا المشهد الرثائي الذي يعكس قمة ما وصلته الذات من تفجع وألم ، محاولا الشاعر استغلال عناصر الطبيعة في صوره الشعرية لإظهار ما بداخله من ضغط نفسي تجتاح ذاته المستباحة .

وتقترن الاندلس في شعر علي جعفر العلاق بذاته اقترانا يوحي بعمق الرابطة التي تجمع بين ذاته الحضارية وهذا المكان الاثير ، إذ نجد في استحضاره لثيمة (الاندلس) بأمكنتها وتمظهراتها انغمارا وجدانيا في ما يراه او يقوله ، إذ يصل في انغماره في هذا حد تجسيد المدينة ليتلاقى بهذا الروح مع الوجدان ، ما يجعل هذه المدينة لا تكاد تحضر بوصفه آخر ، بل نحن [٢٨] ، وهذا ما نجده في قصيدة (**نار القرابين**) ، إذ يؤكد أن مصير الذات ومصير (غرناطة) واحد متشابك ، فما غرناطة الامس الا وجه مشابه لذات الشاعر الذي يجعل من بلده العراق معادلا موضوعيا لذاته الجريحة :

غرناطة / يافاكهة الماضي ، / نسيم واحد يلفنا ، / غبارنا من الزمان / واحد ، / اوراقنا واحدة / نحن / بقايا / طلل مبارك ... [٢٩]

إنّ النص يظهر حالة من التشابك الحضاري بين مدينة (غرناطة) وهذه الذات التي تضمر حالة الضياع التي تتعرض لها الأنا في واقعها الراهن ، وإذا كانت الاندلس هي الفردوس المفقود او الجنة الضائعة ، فليست ارض الحضارات إلّا الوجه الثاني

DOI:10.18018/URUK/021-14/792-805

لهذا الضياع الذي يبرز حالة الشرخ والانقسامات وعصر الطوائف في ثوب جديد ، فـ((حين يصبح وجود الوطن داخليا تنشط حركة الخيال وتظهر مستويات متعددة للحلم والذاكرة ، فيتفرق المكان الواحد في أمكنة عدة ، ويتحول زمن الحياة تحت سمائه إلى ازمنة تاريخية أو شخصية أو اسطورية))[٣٠] ، ومن هنا وجدنا الشاعر يصنع من غرناطة معادلا موضوعيا يحمله بكل ما تعانيه أعماق الذات من عذابات وآلام بسبب هذا الضياع الذي يعادل في حقيقته ضياعا لأمكنة كثيرة ليس أولها الاندلس وليس آخرها العراق .

وهذا الاشتباك بين الذات والمكان الحضاري يصل إلى إعلاء حالة الانتماء حين يجعل الشاعر من (أوروك)* متغلغلة في أعماق الذات عبر شمس حضارتها واشعاعها الفكري ، وهذا ما تجلى في قصيدته (**طائر يقبل من مذبحة**) :

كانت شَمْسُ أوروكَ

في دمي، ورِدائي

دافئاً كانَ كالتّرابْ..؟ [٣١]

إنّ الانتماء الذاتي يصور حالة من حالات الاشعاع الحضاري التي تتكئ عليها الذات وهي تواجه واقعها المتأزم ، فليست الذات إلّا بقايا ذلك الارث الفكري الذي كانت بدايته الكونية في (أوروك) ، ولهذا لم يكن رصيد تلك الذات (**غير أوروك والفرات/وظلي**) ، إلّا ان هذا الرصيد ينقلب فجأة إلى فراغ .. إلى خدعة .. رماد من الذكريات ، وهنا يضعنا الشاعر أمام انكسار حاد بين الماضي والحاضر .. اعماق الذات وواقعها الخارجي .. امتدادها التاريخي ولحظتها الراهنة التي لا ترى غير الفناء والتلاشي :

((فجأةً : / داهَمتْنا الرّيحُ / وانْكسرَ النّهارُ.. / شمَمْنا الدَّمْعَ والمِلحَ / في التّلالِ)) [٣٢]

لتغدو هذه الشمس تعيش لحظة كسوف وانكسار تنعكس على واقع الذات وهي تعاني حالة التراجع بفعل الريح التي داهمت شمس (أوروك) الحضارة ، والشاعر هنا يسعى لكي يصور الذات وهي في مواجهة الآخر الذي جاء محاولا تقويض الذات وتغييب الأنا الحضارية عبر فعل الحرب والتدمير والابادة ، (**مَرَّت طائِراتُ التَّتارِ،/مَرَّ رُعاةٌ/هَمجُيونَ، أيُّ ليلٍ قَديمٍ/لَفَّ أوروكَ؟ لا المَعابِدُ سكْرى/لا مُلوكٌ/ولا مَتاحِفُ../غاصَتْ في المِياهِ/مآذنٌ، هل تَوارَت/شَمْسُ أورُوكَ..؟**)[٣٣] ، فبنية السؤال تسعى إلى تغييب (أوروك) وأن تتوارى شمسها ، لتتحول بعد ذلك إلى شيء من الخيال أو شيء من الخدعة التي اخفاها الواقع لتغدو من الموات حتى كأنها التي لم تكن قد وجدت :

أين أوروك ؟ / ..... / أكانَتْ شَمْسُ أورُوكَ / خُدْعَةً؟ أيَكونُ الموتُ يَوْماً / بِدايةً؟ كُنتُ أبْكي، / نائِحاً أَسْأَلُ الرَّصافَةَ / والكَرْخَ: أُغَنّي لبابِلٍ، أمْ أغَنّي / أرْضَ آشورَ؟ [٣٤]

إن الشاعر يضعنا في هذا النص إزاء مواجهة حضارية تسعى لإبراز حقيقة ما جرى من واقع همجي استعماري لتقويض معالم الحضارة وعمقها التاريخي الممتد عبر الازمان ، إذ حاول الشاعر أن يعري هذا الواقع عبر بنية السؤال التي تتجه نحو الذات والتي لا تنتظر اجابات بقدر ما تعبر عن معاناة لا تتجاوز الصراع الحضاري بين الأنا والآخر ، فهذه التمظهرات (معابد .. متاحف .. مآذن .. بابل .. آشور .. الرصافة) تضمر مواجهة غير متكافئة وتستلهم مرجعيات حضارية ترسم من خلالها صورة للصراع الدائر بين الذات الحضارية والآخر الغربي متمثل في تتار العصر/ امريكا ، فالتتار بهمجيتهم وتسلطهم إزاء حضارة بعمقها المعرفي والفكري ، التتار بآلتهم العمياء/ الطائرات ، والذات بمرجعيتها الحضارية وذاكرتها التاريخية ، وإذا كانت من ادعاءات ترافقت مع الهجمة التترية ترسم صورة للحرية والإنسانية ، فان ما صورته الذات الشاعرة من لحظات الانكسار عرّت هذه الادعاءات الجوفاء ، إنّهم جاءوا (يقطعون المياه/عن وردة الله/... أي غروب/صنعته الغربان/والغرب) ، لتغدوا بذلك الانا الحضارية منفصلة عن إرثها وانتمائها التاريخي .

DOI:10.18018/URUK/021-14/792-805

الانا وهوية المكان الحضاري :

تسعى المتظهرات المكانية _ وبخاصة الحضارية منها – إلى إثبات حالة انتماء الذات للمكان وتعزيز هويتها الوجودية ، لاسيما أن المكان ((هو وطن الالفة والانتماء الذي يمثل حالة الارتباط البدائي والمشيمي برحم الارض – الام ، ويرتبط بهناءة الطفولة وصبابات الصبا ، ويزداد هذا الحس شحذا إذا ما تعرض المكان للفقد او الضياع ، واكثر ما يشحذ هذا الحس هو الكتابة عن الوطن في المنفى)) [٣٥] ، وهذا ما جعل الشاعر علي جعفر العلاق يستعين بالمكان ليختزل تجربته الوجودية في ابعادها التاريخية ، ويسعى إلى استحضار الذاكرة التاريخية راسما من خلالها ملامح الامكنة الحضارية وهي متواشجة مع بعضها بعضا ، مصورا بذلك نسقا حضاريا واحدا متعدد الاماكن والملامح .

فبغداد وغرناطة تقفا جنبا إلى جنب ، وأوروك مع بابل ، وقرطبة مع بيروت ، والنيل يؤازر الفرات ، ويثرب تبكي فلسطين ، في صورة تجمع هذه الامكنة في بناء حضاري موحد يتجلى من خلاله الانصهار والتماهي للذات الملتحمة في مزيج مركب منبثق من هذه الامكنة بامتدادها الجغرافي والتاريخي ، بل يصل تواشج المكان الحضاري إلى حالة التداخل والتفاني :

وتملكني هاجس : / تلك بيروت / ام قرطبة / ..... / اسميك بيروت / ام قرطبة ؟ [٣٦]

فالشاعر يستثمر بنية السؤال لتعزيز شعرية النص عبر إنتاج دلالي يهدف من ورائه إلى تعميق حالة التواشج بين المكانين (بيروت وقرطبة) ، فاستعمال الهمزة مع (أم) فيه دلالة على حالة التماهي بين المدينتين ، وقد فرق النحويون بين استعمال (أم) و(أو) في هذه الحالة ، فالاستفهام مع (أم) يعكس حالة السائل الذي لا يعرف أيهما المراد بالجواب ، أمّا الاستفهام مع (أو) فمعناه عدم التفرقة بين الاثنين[٣٧] ، وهذا ما أراده النص الشعري من استعمال (أم) ، إذ جاء توظيف الشاعر لهذا التركيب لإبراز حالة التواشج والانصار والتماهي بين المدينتين وليس بيان عدم الفرق بينهما .

وأحيانا يسعى الشاعر إلى أن يجعل من مدينة - بعمقها الحضاري - مشتبكة مع مدينة اخرى في صورة تبرز حالة الالتحام والتماهي بين المدينتين ، وكأن ما يقع لمدينة يقع لتلك المدينة في صورة كاشفة لهذا التواشج الحضاري المتصل ، والخارج من مركز كوني واحد ، وهو أرض الذات الممتدة أفقيا وعموديا والمتجذرة في مركز اشعاع واحد ، حيث ((ان الذات التي تمر بسلسلة التحولات ، وتستقطب عناصر كونية ومكانية كما تستقطب الزمن بأبعاده الفعلية والمجازية والاسطورية ، تخضع هذا كله للتشكيل وإعادة التشكيل ، على نحو يؤدي إلى أن يكون المكان الزماني في القصيدة بناء فنيا موازيا ومعادلا ليس للمكان الضائع وحده وإنّما للكون))[٣٨] ، يقول في قصيدته (**أغنية الممالك الضائعة**) عن محنة العراق :

وتلَفَّتُّ، / كانَ الفراتُ وحيداً، / يحصّنُ أطفالَه بالأسى والتمائمِ، / غرناطةٌ تتلوّى، / الضحايا نجومٌ / مهشَّمةٌ في الضفافِ / أيُّ عطرٍ يقودُ الغزاةَ / ..... / ريحٌ عراقيّةٌ تتأوَّهُ، غرناطةٌ / تختفي في صباحٍ من الدَّمعِ، / كيفَ اندفعنا إلى الرّيحِ؟ / غرناطةٌ تتأوَّهُ، وردُ وسائدِنا / يتأوَّهُ.. [٣٩]

فغرناطة ما هي إلّا العراق والعراق وجه آخر لغرناطة ، إذ مازج الشاعر بين فعلين مضارعين (تتأوه) الذي أكد من خلاله الشاعر استمرار فعل التأوه وتجدده (**ريحٌ عراقيّةٌ تتأوَّهُ ، غرناطةٌ تتأوَّهُ**) ، وهذا التواشج الحضاري يجسد التماهي الحضاري بين المدينتين ، مثلما يؤكد في الوقت نفسه التحاما لمعطيات القيم الحضارية العراقية القديمة مع القيم الاسلامية في أزهى عصورها لتغدو هذه القيم للمدينتين في اللحظة الراهنة تشكو ألما متأوة ، وهناك نصوص كثيرة [٤٠] تحكي قصة العناق والتشابك بين الامكنة الحضارية بماضيها وحاضرها .. بأمجادها وانحدارها ، وهذه التجليات المكانية في حقيقتها تختزل قصة صرح حضاري واحد متعدد الاتجاهات ، يأتي ليعبر عن ذات جمعية واحدة تنتمي لمركز اشعاع حضاري واحد ، مما يعزز قيمة الانتماء للذات وهي تواجه تحدياتها الحاضرة وسط هذا الصراع الحضاري ، ولهذا فإنّ الشاعر علي جعفر العلاق يتحرر من القيود الجغرافية التي كبلت

هذا الامكنة الحضارية ، ليوحدها في هوية متجذرة في مركز كوني تتحرك في فلكه كل الامكنة ، وتتمحور حول بؤرة مكانية واحدة متمثلة في ارض الشاعر / العراق الذي يشكل بدوره مركز العالم للحضارات ، وفي الوقت نفسه حاول أن يجعل من (أنا) الذات هي مركز المركز ، لتغدو هذه الذات مركز الحضارات جميعا وهذا ما جسده نص الشاعر في تجلياته المكانية التي شكلت فضاء كونيا متعدد الاتجاهات .

الانا في التمظهرات الحضارية الاخرى :

شكلت التمظهرات الحضارية المرتبطة بـ(الأنا) مرتكزا أعتمد عليه الشاعر في إبراز الهوية في عمقها الكوني ، فـ(اللغة والمسلّة والحبر والذاكرة والقيثارة والأسئلة والكتابة) ، فضلا عن الشخصيات الحضارية كـ(كلكامش وعشتار) وغيرها ، ما هي إلّا تجليات حضارية تعكس مدى الانتماء الذي تؤكده الذات وهي في مواجهتها للواقع الراهن في كل حالاته الانكسارية .

إذ إنّ استدعاء الشاعر لهذه الثيمات أعطى بعدا أعمق لنصه الشعري وهو يوظفها في شبكة من الدلالات القارة لتجلية هوية الذات ، مثلما أعطى فضاء رحبا لتجربته التي جسدت معطيات حضارية في سياقها المعرفي العام ، فثيمة (اللغة) وردت في نصوص كثيرة سعى من خلالها الشاعر علي جعفر العلاق إلى إبراز وظيفة اللغة الثقافي في بعدها الحضاري ، إذ يوظف الشاعر دلالة اللغة دائما بمدلولها الحضاري وليس بمدلولها التواصلي ، فاللغة مثلما نعرف لها وظيفة حضارية أكثر منها وسيلة للتواصل والتفاهم ، فضلا عن ذلك فإنّ اللغة أية لغة إنّما تختزل ذاكرة الامم والشعوب وتكون حاملة لإرثهم الثقافي عبر الاجيال مما يجعلها لصيقة بموضوع الهوية وخاصية من خصائصها ، فـ((علاقة اللغة بالهوية علاقة معقدة وبالغة الحساسية ، ويكمن جانب من حساسية هذه العلاقة في شكلها النظري ، فاللغة ليست معادلا تاما لجنس الهوية ، ولا تستقل عنها بل هي جزء منها ، وأهم مكوناتها الدينامية))[٤١] ، ومن هنا تتجلى اهمية اللغة في جانبها الحضاري وهو ما وجده الشاعر علي جعفر العلاق حين وظف هذه الثيمة دلالة على الهوية الحضارية ، فلغة بابل التي كان ينطق بها أهل الارض جميعا ، تبرز كثيرا في نصوصه ، (**منذ أن كانَ كلكامشٌ عشبةً،/منذ أن خلقت بابلٌ لغةً/ للحنين وللموتِ،**)[٤٢] ، إذ تأتي في نص العلاق حاملة لأحاسيس الذات مثلما تكون معبرة عن إرث حضاري لامتداد ذات الشاعر التاريخية ، مصورا بذلك معاناة بلده العراق وهو يحمل عذابات هذا الإرث .

فضلا عن ذلك فان اللغة بمفهومها الحضاري تأتي في نصوص العلاق مرتبطة بمحنة الذات وهي تواجه لحظتها الراهنة ، يقول في قصيدته (**في مديح الرمل**) :

لي لغتي ولكم لغة / ...../ بارك الماءُ لي لغتي،/ فأنا منذ سبعين قرناً/ أعطرها بدمِ/الأضحياتِ../أرصّعها: / بالندى، / والردى، / والضبابْ.. / لغتي /لم تكن محضَ / نارٍ مخبّأةٍ / في مراياي، بل بنتُ روحي / التي أنضجتها الكوارثُ:/ حيث المدى / عامرٌ بالحضاراتِ، /أو عامرٌ بالخرابْ... [٤٣]

إذ يحاول الشاعر أن يجعل من لغته ندا للمواجهة الحضارية مع الآخر (**لي لغتي ولكم لغة**) محاولا أن يضفي صفة التعريف على لغته إزاء التنكير للغة الآخر ، مختزلا في بنيته العميقة قصة صراع حضاري طويل ، فاللغة التي حملت هذا الإرث المعرفي عبر امتداداته الزمنية لم تكن غير ذات منشطرة على ثنائيات متضادة في مقدماتها وفي نتائجها ، إذ إنّنا نكون إزاء لغة معطرة بالدم .. مرصعة بالردى .. ناضجة بالكوارث ، وهذه الثنائيات تسعى إلى تعرية واقع حضاري أتعبته الانكسارات والتصدعات المتتالية ، التي ينتهي مداها إمّا إلى واقع عامر بالحضارات ، او عامر بالخراب ، وبذلك نكون إزاء نتيجة حتمية تسير وفق ناموس كوني في قيام أو سقوط الحضارات .

ومن التمظهرات الحضارية الاخرى ثيمة (الحبر) وما يجاورها من دلالات ظاهرة حافة كالكتابة ، او دلالات مضمرة كالقلم ، فمثلما نعرف أنّ القلم ومادته الحبر كان له أكبر الأثر في تأسيس كبرى الحضارات وبخاصة حضارات العراق المتعاقبة ، مثلما كان دلالة على تقدم الشعوب ورقيها ، فبدون القلم لا توجد حضارة ولا تنبي نهضة ، ومن هنا وجد الشاعر علي جعفر العلاق في رمزية

DOI:10.18018/URUK/021-14/792-805

الحبر ما يربط هوية الذات بهذا البعد الوجودي الذي يتكئ على مرجعية اختزلت الذاكرة الثقافية عبر الازمان .

يقول في قصيدة (طائر يقبل من مذبحة) :

سَماءٌ مِنْ الخَرابِ
كيفَ تَماهى الحِبْرُ والحَرْبُ؟
هَلْ تَصيرُ الصّحارى والحِصاراتُ
تَوْأميْنِ..؟ (٤٤)

فالمقطع يقوم على ثنائيتين متضادتين تتمثلان في (الحبر والحرب) ، لتتماهى هاتان الثنائيتان في النص ليولدا توأمين من الخراب والدمار ، لاسيما أنّ الشاعر يقرن – في نص آخر – بين الحبر والدم لنكون إزاء معادلة من الثنائيات التي تنتج لنا عالما منزوعا من مقومات الحضارة ، بل قائم على كل ما له دلالة على الحرب والدم والدمار :

للريح التي تمزج:
هذا الدمَ بالحبر..
وهذا الماءَ بالذكرى..
وهذي المقبرةْ
بجنونٍ أزليّ (٤٥)

فامتزاج الدم بالحبر له دلالة اعمق مما نلمحه من هذه الثنائيات بخاصة حين نعلم أنّ الإنسان القديم كانت أداته للكتابة هي دماء الحيوانات التي استخدمها حبرا للكتابة ، بها يكتب ويرسم ويدوّن ، ولهذا فإنّ اقتران الحبر بالدم في المقطع السابق إنّما يوحي ويومئ إلى انعدام القيم الإنسانية للآخر الذي صنع من دم الإنسان حبرا لكتابة تاريخه ، وبدأت عملية التدوين البشعة لتاريخ الإنسان ، وبقدر ما يشكل هذا النص تهكما لاذعا لصورة الآخر ، بقدر ما يكون إعلاء من شأن الحضارات التي نشأت في أرض الشاعر التي كانت دماء الحيوانات أداة للكتابة لا دم البشر ، إنّ صورة (الحبر والدم) في النص تعكس همجية حضارة الغازي البعيدة عن المثل الإنسانية العليا ، التي حولت كل شيء إلى مقبرة .. ذكرى .. خراب ، ما يجعل الشاعر يتساءل مستنكرا عما سيبقى من حضارته إزاء واقع تراجعت فيه هذه القيم حتى عند ابنائه الذين تحولوا مسوخا بفعل الآخر :

هكذا / تتحدّث ريحُ الزمانِ / القديمةُ: / ماذا سيبقى لدنياكمُ / المقبلةْ / بابلُ الجهلِ، / أم بابلُ / الأسئلةْ؟ (٤٦)

إنّ الشاعر يضعنا إزاء ثنائية يسعى من خلالها إلى رسم صورة لما آلت اليه الحضارة اليوم بين بابل الجهل والخراب ، وبابل الحضارة والمعرفة والاشعاع الفكري ، فهذا الامتداد الحضاري المتجذر لأرض الرافدين ينتهي مع لحظة الشاعر الراهنة إلى انكسار وانحدار متوجين بهزيمة فكرية لا تقوى على مواجهة الآخر وهو منهمك في تقويض هذا الصرح من أساسه ، مبتدئا عند أول معلم حضاري عرفته البشرية متمثل في مسلة حمورابي التي تعد أول وثيقة قانونية مكتوبة في العالم ، وهذا ما تجلى في قصيدته (**حبر الاله**) :

دبّابةٌ تتقيّأُ
عندَ المسلّةِ مجهَدةً،
وتشمُّ بأظلافِها السودِ
حبرَ الإلهْ.. (٤٧)

يرسم لنا الشاعر في هذا المقطع لوحة انكسارية حادة لمشهد مأساوي معبر عن لحظات التقويض الحضاري الذي مارسه الآخر الغازي عبر مفردات تشي بمفارقات شديدة ، فصورة (الدبابة) التي تتقيأ عند مسلة حمورابي تقوم على عمق فكري عميق ، يتمثل في ان التقيؤ لما كان عبارة عن عملية استرجاعية ، فان الآخر بمرجعياته الثقافية والحضارية التي أخذها عن حضارة هذه الارض يقوم الآن بتقيؤها عند هذه البقعة وإرجاعها ، معبرا الشاعر من خلال هذه الصورة عن خواء حضارة الآخر وقيمها المنبتة والمقطوعة عن قيم هذه الارض ، بقدر ما يعبر ايضا عن بشاعة عملية الاسترجاع التي تختار هذه المسلة مكانا لها ، والذي زاد الصورة حدة هو ان المقطع قدم لنا مشهدا آخر عبر صورة التدنيس الهمجي الذي تمثل في رسم لوحة لأظلاف الدبابة وهي تشم (حبر الاله) ، واستخدام الشاعر لمفردة (أظلاف) له دلالة على شدة هذا التدنيس ، جاء في معاجم اللغة : ظلف ، جمعه أظلاف

DOI:10.18018/URUK/021-14/792-805

وظلوف ، ظفر مشقوق للبقرة والشاة والظبي ونحوهم ، وهو بمنزلة الحافر للفرس والظفر للإنسان[٤٨] ، لاسيما أنّ النص تراسل الحواس في رسم هذا المشهد عبر فعل (الشم) الذي يكون عن طريق عضو في أعلى الكائن ، منحدرا نحو الاسفل عبر (أظلاف) الدبابة المتجهة نحو معلم حضاري علوي سماوي متمثل في رمزية (المسلة) ، لتتم عملية تمزيق معطيات هذه الحضارة من خلال هذه الأظلاف التي تكون بمثابة مخالب تنهش في أعلى قيمة موجودة في هذه المسلة متمثلة في مضمونها الحضاري المقدس الذي أنار للعالم مسالك الجهل والظلام ، مثلما وضع القوانين وسن الحقوق بين البشرية .

الانا الحضارية وعشبة الحياة :

أخذت قضية الصراع بين بقاء الذات وفنائها مساحة كبيرة من ديوان الشاعر علي جعفر العلاق ، إذ شكل موضوع الخلاص وما رافقه من قضايا التحرر وعودة الحياة وانبعاثها من جديد محورا مركزيا لكثير من القصائد ، وقد وظف العلاق اسطورة عشبة (جلجامش) منطلقا لهذا الخلاص ، مما جعل توظيف هذه الاسطورة تتجلى في نصوص كثيرة ، وإذا كانت العشبة كما وردت في الاسطورة قد التهمتها الافعى ولم يستطع جلجامش أن يجلبها لكي يكتب له البقاء ، فان الشاعر يتوسل بهذه الاسطورة أن تعيد الحياة لواقع أتعبه البحث عن ملاذ :

كنتُ أهْذي، أُنادي:
خذْ لأورُوكَ عُشْبةً
خُذْ بقايا جُثَثِ الخيْلِ
خُذْ يَدي، خُذْ رَمادي.. [٤٩]

أنّ الشاعر يستنجد بهذه العشبة وبكل متعلقاتها في أن تعيد للوطن هويته .. حريته .. يتوسل بكل شي يستطيع أن يعيد الحياة لـ(أوروك) ، إلّا أن العشبة أضحت حلما ضائعا(كنت اهذي) ، مثلما ضاعت من يد جلجامش حين التهمتها الافعى ، مما يؤكد حالة الذات المنكسرة وهي تبحث يائسة عن خيط يوصلها إلى عشبة الحياة .

ويتساءل الشاعر في قصيدته (**أغنية الممالك الضائعة**) عن تلك الاقمار التي ضاعت :

أينَ أقمارُها / يا دمَ الخيلِ؟ أينَ مفاتيحُها / يا بكاءَ الغجرْ؟ / عشبُها في يَدَيَّ / المشرَّدتينِ / عويلٌ:
/ يقِّتتُ ليلَ الأغاني / ويُدمي عروقَ / الشَّجَرْ.. [٥٠]

فالشاعر يرسم لنا مشهدا للباحث عن ذلك الماضي الذي تلاشى في متاهات الزمن ، حيث الممالك تائهة ولا عشبة تسعف الذات في إعادة هوية تلك الاقمار ، بل إنّ العشبة استحالت إلى فعل سلبي لا يقوى على مواجهة هذا الواقع الممزق ، فغرناطة وقرطبة بعد أن كانتا معشبتين أضحتا اليوم فاقدتين للحياة : **(كانَ ثمَّةَ غرناطةٌ مُعشبةْ / في حصى الرُّوحِ ، / غرناطةٌ في الرَّصافةِ، غرناطةٌ في الحنينِ / المُؤدّي إلى قُرطُبةْ..)**[٥١] ، ليقلب الشاعر بعد ذلك معادلة العشب وجعلها هي من تتشبث بالذات وتستنجد بها (**لأنينِ المفاتيحِ رائحةٌ / تتشبَّثُ بي، عشبُ غرناطةٍ / يتشبَّثُ بي ، / لا عناقيدَ من عِنَبٍ دافئٍ في يَديَّ ، / الينابيعُ داميةٌ، أينَ / قابلني العشبُ؟ كيف التجأنا / إلى وردةِ الطِّينِ؟)**[٥٢] ، إنّ مظاهر الحياة انتفت في هذه الممالك وحل محلها الجفاف والخراب والانحدار ، كما انكسرت الذات وتلاشت ذاكرة الأنا في متاهات الضياع (انكسرنا / كسرنا كأسنا / انكسرت للعشب ذاكرة) معبرا الشاعر من خلال ذلك كله عن التصدعات التي تعرضت لها الذات وهي تواجه مصيرها وانشطارها وتشظي هويتها عبر ضياع هذه الممالك : (**أين / فلسطين ؟ أين / مفاتيح بغداد يا وحشة العشب ؟**)[٥٣] ، إنّها استحالت إلى عدم ولا عشبة ترجعها إلى ماضيها الجميل .

إنّ بحث الذات عن خلاصها وعشبة بقائها يمثل نسقا وجوديا مسكونا بالسؤال عن تلك الاماكن الحضارية التي ضاعت وتلاشت هي وما ارتبطت بها من حمولات معرفية كانت مركز اشعاع لأزمنة متتالية ولفضاءات متعددة ، ولم يبق منها إلّا تلك الذاكرة التاريخية المرهقة بالاسترجاعات الرومانسية التي لا تقوى على مواجهة حقيقة واقعها والصراع الذي تواجهه الذات ، مخلفة بذلك أطلالا من الذكريات وسيلا من التداعيات ، ومنفتحة على

DOI:10.18018/URUK/021-14/792-805

وضع حضاري راهن مؤطر بانشقاقات اجتماعية ، وتجاذبات تتشظى عبرها الذات تاركة وراءها زمنا ينتظر عشبته الازلية ، متشبثة بذاكرة تنقذها من هذا الواقع المخضب بالدماء والحروب والانقسامات المنذرة بالفناء والتلاشي ، ومتطلعة إلى ربيع معشب يملأ الارض خصبا واخضرارا وحياة ، وبذلك استطاع الشاعر علي جعفر العلاق أن يعبر عن واقعه الراهن بكل تجلياته محاولا تعرية هذا الواقع بجزئياته المتداخلة وابراز تناقضاته الحادة إزاء الذات ، كما استطاع أن يرسم لوحة درامية للمشهد الحضاري منطلقا من العراق مركز الانبثاقات الحضارية والاشعاعات الفكرية إلى امتداداته الجغرافية ، معبرا عن حالة التوحد والانصهار التي جمعت انساقا مكانية متعددة في ذات حضارية مرتبطة بمركزية كونية واحدة ، مثلت عبر مراحلها التاريخية عمقا فكريا لهوية لها خصوصية الانتماء والتميز .

هوامش البحث :

(١) صوت الشاعر الحديث ، د. محمد صابر عبيد : ١٣-١٤ ، عالم الكتب الحديث ، الاردن ، ط : ١ ، ٢٠١١.

(٢) جماليات المكان ، اعتدال عثمان ، مجلة الاقلام ، ع : ٢ ، فبراير ١٩٨٦: ٩٩

* الهوية مفهوم ذو دلالة لغوية ، وفلسفية ، واجتماعية ، وثقافية ، فلفظ " هوية " مشتق من اصل لاتيني(sameness) ويعني الشيء نفسه بما يجعله مبنيا لما يمكن أن يكون عليه شيء آخر ويميزه عنه ، ولفظ الهوية من الضمير (هو) ، يتحول إلى اسم ، ومعناه أن يكون الشخص هو . هو اسم اشارة يحيل إلى الآخر ، لا إلى الانا ، وهو ما يعادل الحرفين اللاتينيين (ID) ، ومنها اشتق ايضا لفظ (identity) ، أمّا لفظ الانية فيعادل الحرف اللاتيني (ipse) ، ومنها اشتق اللفظ (ipseity) ، ومن ثم تمنع كل انانية وخصوصية ، لان الهوية تثبت الآخر قبل ان تثبت الانا ، ولا يشتق لفظ الهوية من ضمير المتكلم المفرد الأنا إلّا بمعنى الانانية في مقابل الغيرية ، أمّا لفظ الانية فمشتق من أنّ حرف توكيد ونصب ، ومعناه أن يتأكد وجود الشي وماهيته من خلال التعريف . ينظر: اللغة والهوية .. قومية - اثنية - دينية ، جون جوزيف ، ت : د. عبد النور خراقي ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ط : ١ ، ٢٠٠٧ : ٧-٨ ، وينظر ايضا : الهوية والاغتراب في الوعي العربي ، حسن حنفي ، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي : ١٨٥-١٨٦

(٣) في اشكالية اللغة والهوية والتنوع الثقافي ، عبد الرزاق الدواي ، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي : ٢٢٧

(٤) مخاطر العولمة على الهوية الثقافية ، محمد عمارة ، سلسلة في التنوير الاسلامي ع : ٣٢ ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٩٩ : ٦

(٥) ثريا النص ، مدخل لدراسة العنوان القصصي ، محمود عبد الوهاب ، دار الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، ضمن سلسلة الموسوعة الصغيرة ، العراق - بغداد ، ١٩٩٥ : ٧٤ .

(٦) شعرية الرواية ، علي جعفر العلاق ، مجلة علامات في النقد ، ج : ٢٣ م : ٦ ، ذو القعدة ١٤١٧ – مارس ١٩٩٧ : ١٠٠ -١٠١

(٧) العلامة الشعرية ، قراءات في تقانات القصيدة الجديدة ، د. محمد صابر عبيد ، عالم الكتب الحديث ، الاردن ، ط:١ ، ٢٠١٠ : ٤٣-٤٤

(٨) العنوان في الشعر العراقي المعاصر انماطه ووظائفه ، د. ضياء راضي الثامري ، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية ، ع : ٣ ، مج : ٩ ، ٢٠١٠ : ١٦

(٩) الدلالة المرئية قراءات في شعرية القصيدة الحديثة ، د. علي جعفر العلاق ، فضاءات للنشر والتوزيع ، ط. ١ ، ٢٠١٣: ١٢٨

(١٠) ينظر الاعمال الشعرية ، علي جعفر العلاق : ٢ / ٧ ، ٣٢ ، ٤٩ ، ٩٨ ، ١١٤

(١١) الاعمال الشعرية: ١١٤/٢

(١٢) ينظر: لسان العرب ، ابن منظور : مادة أنّ ، معجم اللغة العربية المعاصرة ، د. احمد مختار عمر: مج ١ / ١٣٣

(١٣) السيميوطيقا والعنونة ، جميل حمداوي مجلة عالم الفكر ، ع : ٣ ، ١٩٩٧ : ٩٩ ، وينظر: سيمياء العنوان ، بسام قطوس : ٣٨

(١٤) معجم اللغة العربية المعاصرة : مج ١ / ٢٣٠١

(١٥) الاعمال الشعرية : ٢ / ٣٢-٣٣

(١٦) معاني النحو ، فاضل صالح السامرائي : ج : ١/ ٤٠

(١٧) معجم اللغة العربية المعاصرة : مج ١ / ٢٣٠١

(١٨) الاعمال الشعرية : ٢ / ٣٣-٣٤

(١٩) المصدر نفسه : ٢ / ٣٥

(٢٠) اضاءة النص ، اعتدال عثمان : ٣٤

DOI:10.18018/URUK/021-14/792-805

(٢١) الاعمال الشعرية : ٢ / ٩٨

(٢٢) اغـواء التأويـل واسـتدراج الـنص الشـعري بالتحليـل النحـوي ، د. سعد كموني : ٣١-٣٢

(٢٣) سيمياء العنوان : ١٠٥

(٢٤) الاعمال الشعرية : ١ / ١٢٩

(٢٥) المصدر نفسه : ١ / ١٢٩

(٢٦) المصدر نفسه : ٢ / ١١٤

(٢٧) معاني النحو : ٧٥/٣ .

(٢٨) الآخر في الشعر العربي الحديث تمثل وتوظيف وتأثير ، د. نجم عبدالله كاظم : ٥٨ - ٥٩

(٢٩) الاعمال الشعرية : ١ / ١٠٧

(٣٠) جماليات المكان : ٧٧

* أوروك او الوركاء من المدن السومرية الضاربة في القدم التي تقع بقايا أبنيتها في محافظة المثنى ، وقد أطلق عليها عدة تسميات منها التسمية السومرية (أوروك) وتعني المستوطن واونوك والورقاء وكذلك أطلقت عليها التوراة أسم (أيريخ) وكانت ذات مركز ديني مرموق ، سكنها السومريون فالأكديون فالبابليون فالكيشيون ثم حكمها الآشوريون فالكلدانيون ومن بعدهم الفرس الاخمينيون ، عرف من خلالها أهم ملوك سلالات الوركاء ومنهم لوكال زاكيزي وكلكامش ودموزي واتوحيكال ، ومنها اخترع السومريون الكتابة المسمارية التي تعد من صميم حضارة وادي الرافدين ويعود تأريخ اختراعها إلى ٣٥٠٠ ق.م ، حيث عثر في (أوروك) على رموز تصويرية وأرقام كتبت على ألواح طينية يطلق عليها اليوم الرقم الطينية .أما أهم بنايات هذه المدينة فهي المعابد والزقورات والقصور حيث وجدت آثار ومبان على مستوى عالٍ من الرُقي ومنها أول نموذج للزقورة الذي صار السومريون وغيرهم فيما بعد يقيمون على قمتها أقدس شعائرهم الدينية. كما عثر في مدينة الوركاء القديمة أثناء التنقيب على العديد من اللقى الأثرية التي تدل على تقدم هذه المدينة في مضمار الفنون والأدب فقد نقش سكانها الألواح الحجرية والمسلات والأختام والآنية وأبدعوا في بناء واجهات المعابد بالفسيفساء ودونوا الحوادث التاريخية المختلفة . ينظر: الوركاء مدينة الحضارة الخالدة ، لمياء محمد علي كاظم ، مجلة جامعة بابل ، العلوم الانسانية ، مج : ١٨ ، ع : ١ ، ٢٠١٠ : ٢٢٢-٢٢٣

(٣١) الاعمال الشعرية : ٢ / ١٨٤

(٣٢) المصدر نفسه : ٢ / ١٨٨

(٣٣) المصدر نفسه : ٢ / ١٩١

(٣٤) المصدر نفسه : ٢ / ١٩٢

(٣٥) جماليات المكان : ٧٧

(٣٦) الاعمال الشعرية : ١ / ١٣٠ ، ١٣٥

(٣٧) معاني النحو : ٤ / ٦٢٦

(٣٨) جماليات المكان : ٩٩

(٣٩) الاعمال الشعرية : ١/ ١٠٠- ١٠٦

(٤٠) ينظر على سبيل المثال : الاعمال الشعرية : ١/ ٢٠٩، ٢٢٤-٢٢٥ ٢/٢٠٩،١٩٢،١٠٧،٩٩،٥٥

(٤١) انشقاق الهوية .. جدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الاقصى من منظور تاريخي ، محمد جبرون ، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي ، اشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية ، مجموعة مؤلفين : ٥٢ .

(٤٢) الاعمال الشعرية : ٢ / ٢٥٩

(٤٣) المصدر نفسه : ٢ / ٣٣٩ -٣٤٠

(٤٤) المصدر نفسه : ٢ / ١٩٠

(٤٥) المصدر نفسه : ٢ / ٣٦٣

(٤٦) المصدر نفسه : ٢ / ٣٨١

(٤٧) المصدر نفسه : ٢ / ٢٣٩

(٤٨) معجم اللغة العربية لمعاصرة : مج : ١ / ١٤٣٦

(٤٩) الاعمال الشعرية : ٢ / ١٩٣

(٥٠) المصدر نفسه : ٢ / ٩٨

(٥١) المصدر نفسه : ٢ / ١٠٣

(٥٢) المصدر نفسه : ٢ / ١٠٦

(٥٣) المصدر نفسه : ٢ / ١٠٩

المصادر والمراجع :

اولا / الكتب :

- الآخر في الشعر العربي الحديث تمثل وتوظيف وتأثير ، د. نجم عبدالله كاظم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، دار الفارس للنشر والتوزيع ، عمان ، الاردن ، ط : ١ ، ٢٠١٠.

DOI:10.18018/URUK/021-14/792-805

- اضاءة النص ، اعتدال عثمان ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط: ١ ، ١٩٨٨

- الاعمال الشعرية ج ١ ، علي جعفر العلاق ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، دار الفارس للنشر والتوزيع ، عمان ، ط : ١ ، ١٩٩٨

- الاعمال الشعرية ج : ٢، علي جعفر العلاق ، فضاءات للنشر والتوزيع ، عمان ، ط : ١ ، ٢٠١٤

- اغواء التأويل واستدراج النص الشعري بالتحليل النحوي ، د. سعد كموني ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، بيروت ، لبنان ، ط : ١ ، ٢٠١١

- ثريا النص ، مدخل لدراسة العنوان القصصي ، محمود عبد الوهاب ، دار الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، ضمن سلسلة الموسوعة الصغيرة ، العراق - بغداد ، ١٩٩٥

- الدلالة المرئية قراءات في شعرية القصيدة الحديثة ، د. علي جعفر العلاق ، فضاءات للنشر والتوزيع ، عمان – الاردن ، ط. ١ ، ٢٠١٣

- سيمياء العنوان ، بسام قطوس ، طبعة وزارة الثقافة ، عمان ، الاردن ، ط : ١ ، ٢٠٠١

- صوت الشاعر الحديث ، د. محمد صابر عبيد : ١٣-١٤ ، عالم الكتب الحديث ، الاردن ، ط : ١ ، ٢٠١١.

- العلامة الشعرية ، قراءات في تقانات القصيدة الجديدة ، د. محمد صابر عبيد ، عالم الكتب الحديث ، الاردن ، ط:١ ، ٢٠١٠

- لسان العرب ، ابن منظور ، دار احياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت – لبنان ، ط : ٣ ، د.ت

- اللغة والهوية في الوطن العربي .. اشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية ، مجموعة مؤلفين ، المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات ، بيروت ، ط : ١ ، ٢٠١٣ .

- اللغة والهوية .. قومية - اثنية - دينية ، جون جوزيف ، ت : د. عبد النور خراقي ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ط : ١ ، ٢٠٠٧

- مخاطر العولمة على الهوية الثقافية ، محمد عمارة ، سلسلة في التنوير الاسلامي ع : ٣٢ ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٩٩

- معاني النحو ، د. فاضل صالح السامرائي ، طبعة جامعة بغداد ، بغداد ، العراق ، ط : ١ ، ١٩٩٠

- معجم اللغة العربية المعاصرة ، د. احمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط : ١ ، ٢٠٠٨

ثانيا / الدوريات :

- جماليات المكان ، اعتدال عثمان ، مجلة الاقلام ، العراق ، ع : ٢ ، فبراير ١٩٨٦

- السيميوطيقا والعنونة ، د. جميل حمداوي ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، ع : ٣ ، ١ يناير ، ١٩٩٧

- شعرية الرواية ، علي جعفر العلاق ، مجلة علامات في النقد ، ج : ٢٣ م : ٦ ، ذو القعدة ١٤١٧

مارس ١٩٩٧

العنوان في الشعر العراقي المعاصر انماطه ووظائفه ، د. ضياء راضي الثامري ، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية ، ع : ٣ ، مج : ٩ ، ٢٠١٠

- الوركاء مدينة الحضارة الخالدة ، لمياء محمد علي كاظم ، مجلة جامعة بابل ، العلوم الانسانية ، مج : ١٨ ، ع : ١ ، ٢٠١٠

Abstract :

The civilizational identity and what associated with it of talking about the self and the other of the modern problems that faced human modern as he is looking for his existential affiliation and what achieves his self-distinction and its cultural peculiarities.The contemporary Arab poet has strived to give these confrontation a picture through which he embodies the idea of self search in the middle of what he is Suffering from alienation that threatens its identity and makes it loses its existential affiliation, The poetry of this iraqi poet represent a model that expresses the identity of the civilized self, hence we decided to address the issue of the civilized identity , trying to follow these manifestations in his poetry collection.

DOI:10.18018/URUK/021-14/792-805